آراء

## نيابةً عن أمةٍ بحالها

بسمة النسور

يأخذكِ ما يحدث في فلسطين الحبيبة بعيداً عن نفسك، تضعين أحزانكِ الشخصية على ثقلها جانباً، تتجاهلين مخاوفك وكوابيسك والرعب الدائم الذي ينغّص عليك عيشك، وأنت تلحّين على أحبتك بضرورة أخذ المطعوم. تنسين أمر كورونا اللعين، ولا يعود موعد جرعتك الثانية بالأهمية ذاتها. تتنازلين عن أحلامك بالسفر إلى أبعد نقطةٍ ممكنة، هرباً من كلّ شيء. وتتأهب روحك من جديد، وبكل ما أوتيت من طاقة على الرجاء، كي تقف مع شعب فلسطين وهو يواجه، أعزل وحيداً، غطرسة المحتل الآثم المجرم ووحشيته، وهو يواصل همجيته وبربريته، مستعيناً بقوى الشر (وهي كثيرة) كي يطرد أناساً مسالمين من بيوتهم في حي الشيخ جرّاح في القدس المحتلة، مدججاً بوثائق مزورة وأكاذيب، وفجور التباكي أمام الرأي العام العالمي، وهو يلعب برداءة وركاكة دور الضحية المغلوب على أمرها، في ظلّ صمتٍ مريبٍ ومعيب، من معظم الأنظمة العربية المذعورة العاجزة عن اتخاذ مواقف واضحة شجاعة، منسجمة مع تطلعات شعوبها في نصرة الأشقاء الذين طال عذابهم، غير أن لا أحد يتوقع، أو ينتظر، منها تجييش الجيوش وإعلان الغضب الساطع غير الآتي من غرف اجتماعاتهم المغلقة على ذلّهم وعارهم.

الأكثر قبحاً من ذلك الصمت القبيح الذي يبعث على الغثيان موقف أولئك الأوغاد المطبّعين الذين يجهلون معنى الشرف والكرامة والحق، فيصطفون عبر منابرهم المأجورة، بصفاقةٍ ونذالة، إلى جانب المعتدي القاتل، مرتكب المجازر، ويوجهون اللوم إلى أبناء شعبٍ يمارس حقه في الدفاع المشروع عن النفس الذي تقرّه مواثيق حقوق الإنسان، وعن وجوده على أرض وطنه المسلوبة ظلماً وبهتاناً وتآمراً... أيّ وقاحة هذه، أيّ جبن، أيّ نذالة، أيّ زمن أغبر وصلت إليه العروبة؟ وتظل أدوات الأفراد عاجزةً لا تتعدّى كلمة نابعة من الوجدان المتورّط والضمير الحي المساند لشعب فلسطين الحر وأبنائه وبناته من المعتقلين الذين يواجهون عدسات الكاميرات بابتساماتٍ مضيئة، يطمئنون بها ذويهم أنهم بخير، وأنّهم غير قابلين للهزيمة والانكسار، على الرغم من كلّ شيء. لقطات رائعة لهم تبثها وسائل الإعلام، ومقاطع فيديو لنساءٍ شجاعاتٍ، مقدامات مدافعات عن بيوتهن بالأظافر. يصفهن أحد الجهلاء من تجار الدين، في تغريدةٍ بائسة، بالمسترجلات المزاحمات الرجال في مواجهة العدو، ويحثهن على العودة إلى بيوتهن، لأنّهن غير مكلفات شرعاً بالجهاد! لا يدرك هذا الغبي أنّ تلكم النسوة البطلات، الطاهرات المتصدّيات لقوى الظلم والطغيان، يشرّفن أمثاله من الجبناء المتوارين خلف الشاشات، يبثون فتاويهم الباطلة، وينظّرون، بكل خسّةٍ، في حضرة الدم.

ويهاجم «داعيةٌ» متصهين مشبوه مأجور نصرة شعب غزة أهلهم في القدس، ويحذّرهم من مغبة ذلك، محذراً ومتوعداً إياهم من رد الصهاينة المزلزل، فيعيد المجرم النازي، أفيخاي، الناطق باسم الجيش الإسرائيلي المحتل، التغريدة الكريهة باعتبارها كلمة حق! وينال الخائن ما يستحقه من التحقير والإهانة، لكنّ أمثاله من الأذناب يفتقدون الإحساس بالكرامة، ولا يكترثون سوى برضى أسيادهم ومقدار أرصدتهم، ولا يتوانون عن إهدار ماء وجوههم، فيستحقون الخزي والعار. يظلون حتى لو كثر عددهم وأفسحت لهم القنوات الضالة منابرها الملوثة، يظلون أصواتاً ناشزةً خارجةً عن وجدان أمة حرة عزيزة كريمة، أصواتاً منكرة ونكرة، لا تعبر إلّا عن أمثالها من عديمي الضمير والأخلاق.

هؤلاء الجبناء الذين ينبحون لصالح من يطعم بطونهم الجرباء الشرهة، أسرى منافعهم ومصالحهم الشخصية الضيقة الدنيئة، لن يغبّروا، مهما علا نباحهم، على حذاء فتى فلسطيني، يركض في شوارع فلسطين خلف نعش والده الشهيد، ويصرخ بأعلى صوته المذبوح حزناً: «الله يسهّل عليك يابا» قبل أن ينضم من جديد إلى صفوف الرفاق المدافعين عن الوطن نيابةً عن أمة بحالها.

## لو سأل الفلسطينيون: لماذا تكرهنا أميركا؟

المهدي مبروك

يبدو السؤال، للوهلة الأولى، منفّراً، لعدة أسباب، لعلّ أهمها أنه يعيد، بشكل ما، صياغة سؤال آخر، بادر بطرحه الرئيس الأميركي الأسبق، جورج بوش، في بداية الألفية الثانية في سياقات تداعيات تفجيرات «11 سبتمبر» وما بعدها. سكب السؤال آنذاك جبالاً من الحقد على علاقاتٍ دوليةٍ يفترض أن تستند إلى عقلانيةٍ ما، وإن محدودة، كما يقول منظّرو هذه المدرسة، خصوصاً أنّ العرب متهمون بإغراق هذه العلاقات، المعقدة والمركبة، في محيط من اللاعقلانية ذات المصادر المتعدّدة: حقد طبقي تصبح بمقتضاه الولايات المتحدة حربة الإمبريالية المتوحشة التي تمتص دماء الشعب المفقرة، أو حقد ديني تصبح بمقتضاه حربه «الصليبية الجديدة» التي تصرّ على إذلال المسلمين، كما تذهب جماعات «جهادية» عديدة عنيفة. كان بوش يقصد، في صياغته الصرفية النحوية التي اختارها، حين أسند الفعل إلى ضمير الجمع الغائب «هم يكرهوننا» العرب والمسلمين عامة.

وبقطع النظر عن مصادر هذه العواطف التي قد تكون متبادلةً في أوساط واسعة، مع مخاطر التعميمات المخلّة، ففي سياقاتٍ شديدة التركيب والتعقيد، يفقد السؤال ذاته لدى بعضهم مشروعيته، خصوصاً واو الجماعة التي نتكلم بها، إذ قد يدحض بعضهم هذا السؤال/ الأطروحة، باعتبار أنّ العرب، بصفة المفرد، لا وجود لهم إلا في خيال بعض الناس، حجتهم في هذا اختلاف العرب على المستويين، الإثني والثقافي، إلى حدّ يسحب منهم أيّ هوية جماعية، يمكن أن تكون نداً أو مخاطباً على مستوى العلاقات الدولية. فالعرب أمةٌ تتقاسمها دول، وهم أمةٌ تضم، في الحقيقة، أمماً تحت جناحيها، فهل من معنى لسؤال «لماذا تكرهنا الولايات المتحدة الأميركية؟» وهي التي على علاقةٍ وثيقةٍ بعرب الأنظمة، وبينهما مصالح وكثير من المودة والولاء؟

تغفل أطروحة فوكوياما كلّ تلك التفاصيل المهمة، وتجمعنا في سلةٍ واحدة، وتجعلنا كلنا استثناءً مزعجاً للولايات المتحدة. لا نجد منظراً له تأثير ونفوذ على السياسات الخارجية للولايات المتحدة موقفه منصف للعرب، حتى لا أقول إنه متعاطف معهم. كان تشومسكي استثناءً، يغرّد خارج السرب، وقد أجاب عن سؤال بوش آنذاك، أنّ الإذلال والنهب اللذين تمارسهما الولايات المتحدة كفيلان بصناعة تلك الكراهية.

خارج هذه التحيزات السياسية العاطفية التي تبديها أميركا تجاه إسرائيل، لا تبدو فرضيات المصلحة «المادية» وحدها قادرةً على فهم هذا التحيز المطلق، ذلك أنّ ما تقدّمه هذه الأنظمة العربية للولايات المتحدة لا يمكن مقارنته بما تقدّمه إسرائيل لها.

وعلى افتراض أنّنا - نحن العرب - لم نعد نمثل هويةً موحدةً جامعة، ترسم لها الولايات المتحدة سياساتٍ موجهة، فإنّ السؤال لا يفقد وجاهته، بل هو فقط ينتقل من العام إلى الخاص، ويكتفي بحدٍّ ما من إعادة الصياغة جزئياً. لماذا تكره الولايات المتحدة الفلسطينيين بهذا الشكل؟ علماً أن لا شيء، في التاريخ القريب على الأقل، يمنح جذوراً لهذا الموقف، حتى يجد ما يبرّره، فلا نذكر أنّ الولايات المتحدة قد صاغت ما يماثل وعد بلفور البريطاني، أو أيّ موقفٍ آخر يجعل من الحاضر سجين الماضي، أو مرتهناً له، فحتى بريطانيا، بلد الخطيئة الأصل في ميلاد هذا الكيان، تغيرت مواقفها نسبياً وبشكل براغماتي. كذلك فإنّ الفلسطينيين، في نضالاتهم ضد الاحتلال، لا نذكر أنّهم استهدفوا المصالح الأميركية رأساً. أجازت حركات التحرير لنفسها، بين حين وآخر، القيام بمثل ذلك، إلّا النضال الفلسطيني، لم يوسّع دوائر من يستهدف، وظلت بوصلته، بشكلٍ أو بآخر، موجّهة إلى الكيان الإسرائيلي.

لماذا تكره الولايات المتحدة الفلسطينيين؟ فرضية أنّ سياساتها الخارجية تمليها اللوبيات الصهيونية التي تحالفت، حدّ التماهي، مع أقصى اليمين الديني المحافظ في الولايات المتحدة، تظل قوية، ومع ذلك، هي غير كافية لفهم ما يجري. ستظلّ استراتيجية الهيمنة الأميركية على المنطقة معاديةً لأيّ نضال وطني فلسطيني، حتى لو ذهبت السلطة الفلسطينية إلى أبعد مما يمنحه أيّ نظام عربي تابع. لهذا ولغيره، ستظل الولايات المتحدة ضد الفلسطينيين، حتى ولو في الحدّ الإنساني الأخلاقي الذي يستنكر الاعتداءات الوحشية الجارية... مجرّد عتاب أميركي ممنوع، خصوصاً وقد زيّن لها التطبيع ذلك.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

## من القدس إلى العالم... أسئلة ورسائل

حسان الأسود

ليست معركة الصمود التي يخوضها شباب القدس وصباياها جديدة، إنّها جزء من سلسلة نضالات طويلة مستمرة منذ العام 1967، على الأقل. لكنّ الاستثمار السياسي لأطراف الصراع لم يكن دوماً في صالح هذه النضالات، فكثير من القوى التي دخلت على الخط عبر هذا التاريخ الطويل، والحافل بالهزائم الكبرى والانتصارات الجزئية البسيطة، كانت تسعى إلى خدمة مصالحها بالدرجة الأولى، ولتأكيد حضورها على الساحة الفلسطينية بالدرجة الثانية، باعتبار قضية فلسطين ليست كغيرها من القضايا الأخرى، إنّها قضيّة ذات أسهم مرتفعة القيمة، يمكن الاستثمار فيها بشكل مربح دوماً، وربّما كأفضل استثمار عند الأنظمة التي تحاول تصدير أزماتها واستبدادها بحق شعوبها خارج حدود بلادها.

لم تقتصر عمليات الاستثمار هذه على الأنظمة العربية شرقاً وغرباً، بل دخلت أنظمة إقليمية جديدة بعد الثورة الإسلامية في إيران، وتسلّم نظام الملالي مقاليد السلطة والحكم هناك. تكرّر الأمر بعد فوز حزب العدالة والتنمية في تركيا. تعدّى الأمر مروحة الدول هذه ولم ينحصر فيها، بل اتّسع ليشمل تنظيماتٍ وأحزاباً ومليشيات أيضاً، بدءاً بحزب الله اللبناني وانتهاءً بالحوثيين في اليمن، مروراً بالمليشيات العراقية. وعلى الرغم من اختلاف المواقف والمصالح والأيديولوجيات والخلفيات بين الأطراف المتدخلة، فالقاسم المشترك بينها هو التكسّب سياسياً على حساب فلسطين وأهلها. لكنّ المثير للانتباه حقاً، أنّ نضالات الفلسطينيين تكون على أشدها في المناطق التي ينعدم فيها وجود السلطة الفلسطينية، فالمفارقة العجيبة التي يسجلها التاريخ لنا - نحن العرب - أنّه كلما وجدت قوى ومؤسسات ومنظمات، يفترض بها دعم نضالنا الوطني التحرّري، قلّت فاعلية هذا النضال، وكُبحت نشاطاته وقُيّدت حركته. حتى في مناطق سيطرة حركة حماس التي ترفع شعار المقاومة، ضمن اصطفافٍ لا تخفيه في حلف عريض تقوده إيران، لا نجد النضال عفوياً شعبياً عميقاً، كما نشاهده في القدس. يبدو أنّ الأيديولوجيا تقتل بريق الأشياء ولمعانها.

أسئلة كثيرة تثيرها صواريخ المقاومة الفلسطينية المنطلقة من غزّة باتجاه مدن فلسطين المحتلّة. من بينها بلا شكّ أسئلة الجدوى السياسية، وأسئلة المشروعية الوطنية، وأسئلة الأثمان المدفوعة من دماء الفلسطينيين وحيواتهم، وأسئلة التعاطف العالمي وتعمّق الانكشاف العنصري الصهيوني، وعشرات الأسئلة الجوهرية الأخرى. هل كانت وقفات صبايا القدس وشبابها، مصحوبة بالتغطية الإعلامية للقنوات والمجلات والجرائد ووسائل التواصل الاجتماعي كافية وحدها لصناعة نصر، ولو جزئي، في هذه الحالة؟ هل يمكن للتظاهرات والوقفات الاحتجاجيّة التي ينظمها الفلسطينيون والعرب والمسلمون في مدن وعواصم أوروبا وأميركا أن تغيّر من مزاج الرأي العام العالمي؟ وهل لتغيّر هذا المزاج أثر في اصطفاف الحكومات الغربية المنحاز كليّة للرواية الصهيونية؟ وهل يمكن أن نلحظ تغيراً في الخطاب والمواقف الرسمية من حقوق الشعب الفلسطيني في هذه الدول؟ هل يحتاج العالم لأكثر من هذا الوضوح الصارخ عن معاناة شعب سُلبت أرضه ومُنع حتى من حقّه في الصراخ وإظهار الألم؟ أو ليس للثمن الباهظ الذي تدفعه إسرائيل من هيبتها وسمعتها، وأمن منشآتها وسكانها واستقرار اقتصادها، كافياً للقبول بمبدأ الرد العسكري عبر صواريخ حركتي حماس والجهاد الإسلامي؟ ما مشروعيّة السؤال المنطلق من مبدأ سدّ الذرائع، والقائل بوجوب عدم إتاحة الفرصة لإيران بغسل يديها من دماء السوريين والعراقيين واليمنيين واللبنانيين في بحر فلسطين، وعلى مذبح عدالة قضيتها، وهل يتوقف الفلسطينيون عن المقاومة بحجّة منع غيرهم من أن يستغل مقاومتهم؟ هل يملك الغزّيّون خياراً آخر مثلاً، وهم قابعون حبيسي القطاع بلا أفق سياسي تحت سيطرة حكم الحزب الواحد، وهل يبقى للحياة من قيمة عندما يكون للموت طعمٌ أقلّ مرارة من طعم الحياة؟ ألم يحن الأوان للقيادات الفلسطينية في السلطة وفي منظمة التحرير أن تعيد النظر في حساباتها واستراتيجياتها؟ ألم تكتفِ بعدُ من ذلّ المهانة وانعدام جدوى الانبطاح والاستسلام والخنوع؟ هل ينتظر حكّام دول العرب أكثر من هذا ليتحرّك فيهم ما بقي من شرف وضمير، إن لم نقل ما تفرضه اعتبارات السياسة ومصالح الدول؟ ألم يكن لوقفة الفلسطينيين، ومن ساندهم من الشعوب العربية، وقع الصاعقة على المطبّلين والمزمرين من دعاة التطبيع والساعين إليه مهرولين، من دون أدنى كرامة أو خجل؟

> العلاقة بين الشعوب أكبر من كلّ الخطابات والشعارات، علاقة وجود أو عدم وجود، أدركها الأطفال، كما الشباب والكهول

الحقيقة أنّ الشعوب قالت كلمتها، فالقدس ما زالت وستبقى مهوى أفئدة ملايين العرب. تعبّر الشعوب عن ذاتها وعن مواقفها من دون حسابات في القضايا الكبرى، لا ينتظر المحكومون هنا إذن الحاكم للتعاطف مع أبناء جلدتهم، فلم يكن بعيداً عن الشباب السوري في المدن الثائرة أن يرفعوا علم فلسطين، ولا بدّ أنّ الأردنيين والمصريين وبقيّة العرب من المشرق والمغرب فعلوا ذلك، كلّ على طريقته. كذلك لم يكن مفاجئاً لنا - نحن السوريين - من معشر الثورة، سماع صوت عبد الباسط الساروت يصدح في أسواق القدس العتيقة، ولم يكن غير منتظر أن يرفع شباب فلسطين من باحات الأقصى علم الثورة السورية، ولا أن تتلحفه صبايا القدس الشريف. وليس هذا من باب واحدةٍ بأختها أو هذه بتلك، أبداً، فالعلاقة بين الشعوب أكبر من كل الخطابات والشعارات، إنّها علاقة وجود أو عدم وجود، أدركها الأطفال، كما الشباب والكهول. لم يكن عبثاً أيضاً أن سلك حرس إيران الثوري وحزب الله طريق تحرير القدس من صنعاء إلى بغداد والموصل، مروراً بحلب وحمص ودمشق، وصولاً إلى بيروت، فحرثوا المدن والقرى بحرابهم شبراً شبراً من دون أن يصلوا إلى القدس. هم يدركون، كما ندرك نحن أيضاً، أنّ تحرير القدس يمرّ من كلّ العواصم والمدن والقرى العربية، لذلك كان حقدهم وهمجيتهم بلا حدود. ونحن ندرك ذلك جيداً، ولهذا وقف معنا - نحن السوريين - شباب المخيمات وصباياها من درعا إلى حندرات في حلب، مروراً بمخيمات اليرموك وفلسطين في دمشق، والرملة في اللاذقية، ومخيم حمص، وبقية المخيمات، كما وقف الفلسطينيون حيثما وُجدوا مع أشقائهم العرب في هذه العواصم السليبة. نحن، على الأقل، نعرف عمقنا الاستراتيجي، ونعرف أين نقف ساعة الحقيقة، بحثاً عن الحق ونصرة له.

لن يتوقف أهل القدس، ولا بقية أهل فلسطين في الداخل وفي المهجر، عن النضال، على الرغم من هذا الاستثمار من الآخرين، فالقضية بالنسبة لهم هي قضية وجود أو لا وجود. كذلك لن تتوقف الشعوب العربية عن محاولاتها كسر القيد، فالجميع يدرك من هو العدو، وأين هو الطريق.

(كاتب سوري في برلين)

كاريكاتير عماد حجاج

## القدس توحّد الفلسطينيين

داود كتّاب

دعاني رئيس تحرير مجلة «القدس بتجمعنا» الزميل سايمون أزازيان، لحفل إفطار جماعي مقدسي في النصف الثاني من شهر رمضان. وشمل الاحتفال السنوي الذي تقيمه المجلة التي تصدرها جمعية الكتاب المقدس الفلسطينية في القدس مقدسيين من خلفيات دينية مختلفة، توحدهم القدس وحبهم لها، عاصمة دولة فلسطين العتيدة.

كانت السهرة الرمضانية، برفقة فرقة موسيقية بأجواء لطيفة، وأصدقاء لم نرهم منذ مدة، جميلة. لكنّ النقاش السياسي خلال الإفطار، وفي لقاءات مع أصدقاء وقادة عديدين في رام الله، كان كئيباً. كان الكلّ يشكو من قرار الرئيس محمود عباس إلغاء الانتخابات، بسبب التخوّف من النتائج، لكن بحجّة رفض إسرائيل السماح للمقدسيين المشاركة فيها. لم يكن أحدٌ مقتنعاً بأنّ القدس ستتحول إلى مغناطيس يجذب أبناء فلسطينيي 1948، ويكشف زيف ديمقراطية إسرائيل لدى 20% من سكانها، فضلاً عن تحريك مشاعر الفلسطينيين وأصدقائهم في المعمورة.

من الضرورة أن يتم كشف حساب وتقييم حقيقي. وهنا أعترف بأنّني لم أكن مقتنعاً بجدّية الشباب المقدسيين في الموضوع النضالي، إذ كان لديّ وآخرين القناعة بأنّ الأسرلة قد زرعت جذورها لدى الشباب الذين ولدوا وترعرعوا في دولة الاحتلال، متمتعين بمزايا اجتماعية. الأمر نفسه كان ينطبق على فلسطينيي الداخل، وخير مثال على التخوف من غياب المواقف الوطنية الهرولة لدى أحد تيارات الداخل للانضمام لحكومةٍ برئاسة نتنياهو.

أعادت أحداث الأيام الأخيرة الثقة بأهمية القدس، ودورها ومحورها في الصراع العربي الإسرائيلي، على الرغم من تطبيع دول عربية علني، وغياب أيّ استراتيجيةٍ حقيقيةٍ لإنهاء الاحتلال. فكما قال لي صديق كان له دور مهم في العمل العام الفلسطيني: يجب أن نركز على إدارة الصراع، وليس إنهاءه، الحلّ شبه مستحيل في الوضع الحالي... وقد يكون هذا القول صحيحاً، لكنّ ما حدث أخيراً قلب المعادلة، وأدخل عناصر كانت دائماً موجودة، لكنّ أحداً لم يتوقع أن تلعب دوراً مؤثراً.

كان للشباب المقدسي الفضل الأول والأهم في الزلزال الذي تفجّر في رمضان، وتمثل في استعادة حرية التحرّك في باب العامود، وفي أحياء البلدة القديمة التي تحرّرت من متابعات الاحتلال، بعد كسر حاجز الخوف، وبعدما عطّل الشباب عشرات الكاميرات التي كانت تراقب كلّ التحرّكات في القدس القديمة، خصوصاً التي كانت منصوبة أمام كلّ مداخل المسجد الأقصى. كما كان لشباب القدس وقواه المجتمعية المختلفة، إضافة إلى التعاطف العالمي مع أهالي حي الشيخ جرّاح، الأثر الكبير في تحريك الرأي العام.

لا بدّ من الاعتراف أنّ عنصرية المحتل وبطشه المبالغ فيه، خصوصاً في الاعتداء البربري على المصلين في المسجد الأقصى، المعتكفين فيه خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان، لعبا دوراً مهماً في توحيد الجميع خلف القدس، والاستعداد للنضال والتضحية من أجل القدس ومقدّساتها.

أحداث باب العامود وحيّ الشيخ جرّاح والمسجد الأقصى رافقتها مطالباتٌ ودعواتٌ إلى الأخوة في كتائب عز الدين القسام إلى الانضمام للدفاع عن القدس، وقد وجدت الدعوة تجاوباً سريعاً، بإطلاق صواريخ وصلت إلى ضواحي القدس الغربية. وقد يناقش بعضهم ما إذا كان إدخال صواريخ غزة ساعد أم أضرّ الحملة الشعبية والتعاطف العالمي مع المقدسيين ضد محاولات إسرائيل العمل على تطبيق سياسات التهويد والتطهير العرقي أمام عدسات العالم، لكنّ رد فعل إسرائيل المبالغ فيه، وقتل الأطفال والنساء، إضافة الى تحريك العصابات العنصرية اليهودية، قلب الموازين مرة أخرى، وزاد في التعاطف العالمي، والأهم أنّه نجح في توحيد الجميع لصالح القدس والقضية الفلسطينية، على الرغم من ثمن باهظ في العدد الكبير من الشهداء والمصابين، وتدمير أبراج ومساكن ومؤسسات في قطاع غزة والضفة الغربية.

> القدس تجمع الفلسطينيين وتوحدهم، ولا تريد أن يبقوا منقسمين ورافضين للتغيير

لقد تم إدخال عناصر مهمة لم تكن موجودة. كان لشبكات التواصل الاجتماعي، خصوصاً لدى الشباب، دور فعال في تحريك الناس، ولعبت مقاطع الفيديو القصيرة دورها في تجاوز احتكار شبكات التلفزة العالمية وتحيزها، وهي التي تلعب إسرائيل ومؤيّدوها الدور الكبير في تعطيل عملها أو منع الاستفادة منها لصالح القضية الفلسطينية. ولا بدّ من نقل الصراع الرقمي من الدعم والتضامن مع القدس إلى الضغط على الناشرين ومنتجي نشرات الأخبار العالمية، والتي كان أداؤها ضعيفاً، مقارنةً مع التغطيات الممتازة لفضائيات عربية متضامنة مع القضية الفلسطينية.

مؤكّد أنّ القضية الفلسطينية عادت لتحتل الصدارة في النشرات الصحافية ومناقشات مجلس الأمن، واهتمام العواصم العالمية.

(كاتب فلسطيني)



## عفاريت السكك ومؤامرة حوادث القطارات في مصر

عصام شعبان

كان لافتاً أن يطلب وزير النقل المصري، كامل الوزير، الحضور إلى مجلس النواب، وإلقاء بيان بشأن مشكلات السكك الحديدة، بعد أن تجاهلت الحكومة مطالبات سابقة، من أعضاء المجلس، بحضوره، لتفسير حوادث القطارات المتتالية، إلا أن الدهشة تبدّدت، حين طالب الوزير المجلس، بعد إلقاء بيان تفصيلي بإنجازات الوزارة، بإصدار قانون يسمح بفصل عمّال من هيئة السكك الحديد، بدعوى انتمائهم إلى جماعة الإخوان المسلمين، ومناصريهم من «عناصر إيثارية»، وجاء الطلب مقترناً باتهامهم بتدبير حوادث القطارات أخيراً. يلجأ الوزير إلى النواب، على حد تعبيره، بعد أن فشلت الوزارة في التخلّص من المخرّبين. وهذه الرواية تعني، ضمنياً، أن كل الوسائل القانونية والإدارية لم تمكّنه من إثبات الاتهام، فقرّر أن يفصلهم عبر قانون مخصص لذلك، ودفعة واحدة. ويتّضح، من السياق، أن الاتهامات وليدة منظور تآمري مدفوع بموقف سياسي، وتقدّم بوصفها إطاراً لتفسير مشكلة حوادث القطارات وحلها. وإلى حين صدوره، طالب بنقل من سمّاها «العناصر الإيثارية» إلى وزارات أخرى أقل حساسية. وفي محاولةٍ لإثبات التهم، عرض الوزير منشوراً لأحد العاملين في السكك الحديد، عن مسلسل «الاختيار» (يركز على بطولات الشرطة)، وكأن مشكلة قطاع السكك الحديد، بما فيها حوادث، وليدة صراع وانتماء سياسي، ولم يكتب عنها عشرات الدراسات، ووضعت لها خطط للإصلاح والتطوير، بما فيها الخطط الحكومية، التي تناولها الوزير، ومن سبقوه في المنصب، وجاء في البيان على خطوط عريضة منها، وهي تتضمن علاج بعض أوجه القصور، سواء ما تعلق بتطوير نظم الإدارة أو شراء معدّات وقطارات جديدة، وتطوير نظم الإشارات والإنذار، وتدريب العاملين ورفع كفاءتهم، وتحسين نظم الرقابة والمحاسبة. ويكشف تصدير المشكلة بوصفها أعمالاً تخريبية عن ذهنيةٍ لا تقبل أن تواجه بتحدّيات أو إخفاقات، خصوصاً أن الوزير قادم من منصب عسكري، ومرّ بتراتبيةٍ، يظن بعضهم أنها تبعده عن موضوع المسألة والمحاسبة، والأسهل له ولمناصريه في الأزمة الحالية، ومن أجل تخفيف الأزمة أمام الرأي العام، أن تُفسّر بوصفها مؤامرةً، يقودها مخرّبون مناوئون لسياساته، وأنه غير قادر على المواجهة عبر البنية التشريعية الحالية، ويحتاج قانوناً صارماً يسمح باستبعاد المخربين، غير إشارات إلى أن الأجهزة المختصة، الأمنية والرقابية، وجهات التحقيق، لم تتمكّن من مواجهة «العناصر الإيثارية» بكل ما لديها من أدوات.

المجتمع المصري أمام ظاهرة تزامن الأزمات، مع بروز اتهاماتٍ، ذات صبغة عمومية، تتجه إلى مكونات سياسية يجري إجمالها في «الإخوان المسلمين». ويتسع التصنيف أحياناً، حسب الموضوع، ليضم مخرّبين يمثلون الطابور الخامس من حقوقيين وسياسيين (بمختلف توجهاتهم) وأنصار ثورة يناير ورموزها، وكل هؤلاء هم سبب الأزمة وكل أزمة. بالإضافة إلى ذلك، تكشف المطالبات المتكرّرة بتشريع قوانين الخوف والإذعان تصورات السلطة التنفيذية لوظائف مجلس النواب، وسعيها إلى توظيف هذا المجلس، حتى وإن كان بعضهم يضيق بالشكل الديمقراطي، ويعطّل الأدوات الرقابية، إلا أنه، في محصلة نهائية، يراد أن يكون المجلس إحدى أدوات السلطة التنفيذية، سواء في ما يتعلق بدوره التشريعي، أو حتى استخدام أدوات الرقابة والمسألة للتخلص من بعض الأشخاص. وهو ما يمكن رؤيته، بوضوح، في الفرق بين تعامل البرلمان مع وزير الإعلام، أسامة هيكل، ودفعه إلى الاستقالة، عبر هجوم مكثف داخل البرلمان (عبر أدوات رقابية) وخارجه، على خلفية نقد الوزير منظومة الإعلام الرسمية، وحالة الترحيب والاحتفاء بوزير النقل، كامل الوزير، وإبراز «جهوده وإنجازاته»، على الرغم من حوادث القطارات المتتالية، التي كانت سردية المؤامرة في تفسيرها ضرورية، لتبرئة الوزير بدلاً من محاسبته، ومدح سياسات الحكومة بدلاً من نقدها، لأن فكرة المؤامرة، ضمن نتائجها نفي مبدأ المحاسبة، لمن في مواقع اتخاذ القرار، بل تحلّ مكانها المطالبة بالمساندة والتضامن ضد المتآمرين والمخرّبين.

كذلك يرسل وزير النقل، عبر حضوره في البرلمان بطلب شخصي منه، وليس استجابة لمطالبة أعضاء البرلمان، رسائل بأنه يستدعي ولا يُستدعى، ويطلُب لا يُطلب منه، وأنه، بوصفه وزيراً برتبة فريق وقائداً سابقاً في سلاح المهندسين، ليس كما باقي الوزراء المدنيين، وأن أدوات الرقابة والمسألة والتشريع توظف من أجله لا ضده. ويعكس خطابه أن نظرته إلى المشكلات خاضعة لمنظور أمني في الأساس، يواجه بها الأزمات التي يُحدثها المخرّبون الذين يتحملون أسباب حوادث القطارات، وكأنها أزمات جديدة، ومرتبطة بصراع سياسي. وبالمنطق ذاته، يحق لكل حكومة سابقة أن تتهم المناوئين لها بتدبير حوادث القطارات، بما فيها حكومة الإخوان المسلمين التي شهدت حوادث للقطارات عام حكمهم، غير تبرئة حكومات حسني مبارك، من حوادث مماثلة ما دام الحوادث سببها المخرّبون. وبجانب أن خطاب المؤامرة ينشئ وعياً زائفاً وموقفاً خادعاً، وينشر أجواء الخوف والريبة، فإنه عملياً يقلّص فرص مناقشة المشكلات، بشكل علمي وعقلاني، ويهمّش فرص اختبار جدوى التوجهات والسياسات، ومدى صلاحية نظم الإدارة، ويهمّش من التعامل المهني والاستناد إلى أطروحات المتخصصين وأصحاب الخبرات في ملفات النقل والسكك الحديد، لصالح منظور العدو الخفي، في مقاربة إلى تفسير الحوادث بوجود عفاريت في السكك.

> لم تعد معالجة الأزمات عبر التحصن بسردية المؤامرة ذات جدوى، ولا يلتف حولها جمهور واسع

وبالطبع، لا يستند خطاب أن المتآمرين خلف حوادث القطارات إلى وقائع مقنعة، فضلاً عن أنه يتجاهل دراساتٍ، حكومية وغير حكومية، حول مشكلات قطاع السكك الحديد، ولم يكن متسقاً أن تكون خطة الوزارة في التطوير مستندة إلى منظومة تطوير الإدارة وقدرات العاملين، وسدّ العجز في المعدّات (منها جرارات وقطارات ونظم الإشارة)، وأن يجري التركيز على سردية أن الحوادث سببها مخربون، التي تصبّ، في النهاية، في تجاهل أسباب الحوادث، والتي ترتبط بثلاثة عناصر رئيسية: أحوال الطرق ومعدّات التشغيل ومستلزماته، ونظم الإدارة وسياساتها، وثالثاً العنصر البشري. وبالمناسبة، لم تشر تحقيقات النيابة إلى القصدية، بل أعلنت أسباباً، منها تعاطي بعض السائقين المخدّرات، وتجاوز السرعة والإهمال، وتعطل نظم الإنذار، وهذه الأسباب المباشرة، غير وجود مشكلاتٍ تتعلق بطبيعة الطرق، ونظم التشغيل والتحكّم.

وأخيراً، لم تعد معالجة الأزمات عبر التحصن بسردية المؤامرة ذات جدوى، ولا يلتف حولها جمهور واسع في المجال العام، بل تكون أحياناً محلّ تندّر وسخرية، ويُنظر إليها بوصفها أداة دفاعية، تبرّئ ساحة متخذي القرار، عبر البحث عن عدو يتم تلبيسه الأزمة. حتى بعض المؤيدين للسلطة لم تعد هذه الطريقة مقنعة لهم، وهم غير قادرين على ترويجها، وليس في مصلحة السلطة أيضاً لو تعاملت بعقلانية أن تعمي الأنظار عن مخاطر حقيقية بسردية المؤامرة، لأنها ببساطة لن تحل الأزمة، أو تحد من مشكلاتٍ لها جذورها وأسبابها المعلومة، والقابلة للقياس والدراسة.

(كاتب مصري)

حادث قطار طوخ في مصر (أيمن عارف/فرانس برس)

## اجتماع أميركي فلسطيني نادر

معن البياري

عشية اجتماعاته أمس مع وزير الحرب الإسرائيلي، بيني غانتس، ومسؤولين آخرين في حكومة الاحتلال، التقى مساعد وزير الخارجية الأميركية للشؤون الإسرائيلية والفلسطينية، هادي عمرو مع قائمين على جمعيات أهليةٍ في فلسطين المحتلة في 1948، بطلب منه، لمحاولة فهم أسباب المواجهات التي شهدتها مدن وبلدات عربية في «داخل إسرائيل» بين العرب واليهود، و«لإعداد تقرير عن خطورة هذه الاشتباكات» على ما أفيد. وإذا كان ثمّة مجازفة في القول إن الاجتماع هو الأول من نوعه، بين فاعليات فلسطينية في الداخل وموفد أميركي رفيع ترسله واشنطن لبحث توتر عسكري ساخن في الأراضي المحتلة وقطاع غزة، بالنظر إلى حاجة حسم صفته هذه إلى تحرّ أكاديمي، فإن في الوسع، من دون تحرّز، القول إن الاجتماع نادر جدا، نوعا ومضمونا. وقد أفيد بأن النشطاء الذين التقاهم هادي عمرو (لبناني الأصل، متزوج من فلسطينية من الناصرة) أسمعوه أن جماعات من المستوطنين وزعران اليمين الفاشي الفالت مستمرّة في اعتداءاتها على العرب، وأن نذر وقوع انفجار خطير واردة، وطالبوا الولايات المتحدة بأن تلحّ على إسرائيل لوقف حربها العدوانية على قطاع غزة، وألا تكتفي بمواقف لفظية مائعة. ولا يتزيّد واحدُنا إذا ذهب إلى أن هذا الاجتماع دليل مضاف على وحدة الشعب الفلسطيني المتحقّقة مجددا، والتي تبدّت مظاهرها غير القليلة في الهبّة الشاملة، والعريضة، في عموم فلسطين، انتصارا للقدس وإسنادا لأهل غزة، وتأكيدا على جوهرية القضية الفلسطينية بوصفها قضية شعب واحد، وانتسابا لحق واحد، وارتباطا بالمقاومة الباسلة التي تضرب العمق الإسرائيلي ليعرف المحتلون أن في مقدور هذا الشعب أن يفعل الكثير ردا على جرائم العدوان اليومية. ومن أبعادٍ ليست خافيةً في هذا المشهد، بدلالاته الكثيفة، أنها عنصريةٌ من الصنف نفسه، متوطنةٌ يجتمع عليها الصهاينة الذين يدأبون على الاعتداءات المتكرّرة في القدس القديمة، وينشطون من أجل مزيد من التهجير والتهويد فيها وفي جوارها، وبحمايةٍ من شرطة الاحتلال وقواته، مع الصهاينة الذين يتلملمون في عصاباتٍ مسلّحةٍ مكشوفةٍ، ويقترفون جرائم الاعتداء على فلسطينيي اللد وكفر كنا وحيفا وغيرها، وأيضا بتغطيةٍ من الأجهزة العسكرية للدولة العبرية، ومع الصهاينة في جيش العدو، ممن يديرون اعتداءات القذائف الصاروخية التي تقتل الغزّيين، أطفالا ونساء وشيبا وشبانا. وأمام هذه الحقيقة المؤكّدة، فإن بديهية أن يجتمع شعب فلسطين على أفق وطني موحد، يقوم جوهره على الدفاع عن وجود الفلسطيني في أرضه، في كل أرضه، لا تحتاج كلاما كثيرا. لم يرشح من اجتماعات المُبتعث من الخارجية الأميركية مع المسؤولين الإسرائيليين أمس ما إذا كان قد جيء فيها على «نذر مخاطر» المواجهات بين العرب واليهود، غير أن المتأمل في انتباهة مسؤول أميركي رفيع إلى أمرٍ كهذا قد يذهب، في تفسيرها، إلى أن ثمة مقادير ظاهرة من الغضب لدى الإدارة الأميركية الراهنة من المسلكيات الفظّة التي تنتهجها المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، على غير صعيد، برعاية المستوى السياسي. وإذ ينقل أحد المشاركين الفلسطينيين في الاجتماع عن الموفد هادي عمرو وصفه نتنياهو بأنه «يخرّب مسيرة السلام»، فإن لقارئ كلام كهذا لا بد أن يأمل من المسؤول الأميركي الرفيع أن ينقل إلى حكومة دولة الاحتلال رسالة واضحة، مفادها أن التخريب الذي ترتكبه هذه الحكومة في غير شأن لم يعد محتملا. وإذ حافظ الموقف الأميركي في غضون العدوان اليومي على غزة على تقليديته، المتعلقة بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها، فإن تعبيراتٍ متقدمةً بشأن المعاناة الفلسطينية قد نطق بها غير مسؤول أميركي في الأثناء. لقد أكّدت المظاهرة التي نظمتها فاعليات فلسطينيي الداخل في سخنين أول من أمس أن احتجاجات أهل الخط الأخضر لن تتوقف إلا بوقف العدوان الإسرائيلي على غزّة، ولما اعتقلت السلطات العسكرية عشراتٍ منهم، واستخدمت الرصاص الحي ضد المتظاهرين في كفر كنّا، فإن الرد الواحد، والذي أعلنه أهل فلسطين على هذا الصلف والعدوان المبيّت، أنه شعبٌ واحد لا يلين من غزة إلى سخنين، على ما هتفت المظاهرة الحاشدة. وكيف له أن يكون غير شعبٍ واحد، ورمزية سخنين خالدة في إشعالها هبّة يوم الأرض قبل أزيد من 45 عاماً، وفرادة اجتماع هادي عمرو مع نخبة فلسطينية ناشطة في الناصرة غزيرة الدلالات سياسيا، ووطنيا من قبل ومن بعد.

## في خذلان المتخاذلين

سامح راشد

كاد العالم ينسى أنّ ثمة حالة احتلال وحيدة على ظهر الكوكب ما زالت قائمة في فلسطين، بعدما تغيرت موازين القوى، وفقد الفلسطينيون كثيراً من التأييد الإقليمي والعالمي، وتراجعت أولوية قضيتهم على قائمة الاهتمامات والشواغل العربية من المحيط إلى الخليج، وانهمك الفلسطينيون أنفسهم في صراعاتٍ جانبيةٍ ومعارك ضيقة حول المصالح والمناصب والنفوذ والهيمنة على سلطةٍ مقيدةٍ وأرض مستباحة، فحاولت إسرائيل حذف القضية من القاموس السياسي، وإسقاطها من ذاكرة التاريخ. وهي عملية تكرّرت وفشلت مرات ومرات. وشهد العقدان الماضيان وحدهما حملتين عمليتين كبيرتين لزحزحة القضية الفلسطينية، بعيداً عن أعين شعوب المنطقة وقلوبها وعقولها. كانت الأولى بالتشويش على القضية، وتشويه أصحابها بحجّة «الإرهاب»، وإدانة «المقاومة» المشروعة للاحتلال بتهمة «الإرهاب»، والتذرّع بها لتصفية المقاومين، وإنهاء أيّ مقاومةٍ ضد الاحتلال وإن بالكلمة. وعلى الرغم من الغموض الذي أحاط بتفجيرات «11 سبتمبر» والالتباس الكبير حول من يقف وراءها، فإنّ النصيب الأكبر من الشبهات المفتعلة حولها اتجه حصراً إلى الفلسطينيين، وأيّ عربي أو مسلم يوميء، وإن صمتاً، إلى رفض الاحتلال الإسرائيلي وانتهاكاته المستمرة. ومع فقدان فزّاعة «الإرهاب» بريقها، لم يكن بدٌّ من إيجاد فزاعة أخرى. فوقع الاختيار على إيران، لتصير المتهم الجديد، والمارق الذي ينبغي ترويضه، وليس القضاء عليه، فإيران ليست الهدف الأصلي، وإنما هم الفلسطينيون. ومن أكبر الدلائل على ذلك تكرار موقف واشنطن وتأكيده (منذ عهد كلينتون، مروراً ببوش الأب ثم الابن ثم أوباما ومن بعده ترامب، وإلى بايدن) بأنّ المطلوب ليس تدمير إيران، أو حتى إسقاط نظام حكم الملالي، وإنما فقط «تغيير سلوك طهران». ومع خروج دونالد ترامب من البيت الأبيض، تغير التكتيك الأميركي لتحجيم إيران وتطويقها. لكنّ الاستراتيجية الأشمل في الشرق الأوسط لم تختلف، وأيضاً سياسة دول المنطقة المتوافقة مع هذه الاستراتيجية، فلم يحدث تراجع أو نكوص عن تطبيع بعض الدول مع إسرائيل، فيما عرف بالاتفاقات «الإبراهيمية». وكأنّ الأوضاع استقرّت وقضي الأمر، ولا يتبقى على إعلان انتصار إسرائيل النهائي سوى تقييد إيران مجدّداً بالاتفاق النووي، إذ لم تعد القضية الفلسطينية تشغل بال أحد، ولا مكان لها إلّا في سجلات الماضي، أو هكذا ظنوا. وللحق، توفرت لذاك الظن كلّ مقومات التأكيد والنجاح. وحاز على تأييد كلّ الأطراف ومباركتها قولاً وفعلاً؛ الأميركيين والأوروبيين والإيرانيين والعرب، وقبل كلّ هؤلاء الفلسطينيون أنفسهم، أو بالأصح بعضهم، إلّا طرفاً واحداً شاذّاً بطبيعته، هو ذلك الكيان المُفتعل.

نعم، إسرائيل هي الطرف الوحيد الذي لم يعمل جدّياً على إكمال تصفية القضية الفلسطينية، وإعادة بناء مصفوفة المصالح والتهديدات والتحالفات في المنطقة. ربما يُعزى ذلك إلى قدَر ربّاني أو إعمالاً لسُنّة الله في الكون. وأيّاً كان السبب، المهم أنّ هذا هو الواقع، فقد أخذ إسرائيل الغرور، فتوهمت أنّ القضية انتهت فعلياً، أو أنّ الفلسطينيين صاروا موتى، لا وجود لهم ولا فعل ولا كرامة ولا حياة، فكان منها الغباء في استهداف المصلين بالأقصى، والعنجهية في تهجير أهل حيّ الشيخ جرّاح في القدس، ثم الهمجية في الرد على نخوة أهل غزة بحماقة ووحشية. وبدلاً من الانبطاح والخضوع اللذين ربما توقعتهما تل أبيب، إذا بنيران المقاومة تُلهب شرايين الدولة اليهودية، وهي ليست نيران الصواريخ، وإنّما هي النار التي في القلوب... وهكذا، من حيث لا تدري، تهدم إسرائيل الوهم الذي تحاول بناءه منذ زمن طويل، وتثبت بنفسها أنّ الحق باقٍ يضرب بجذوره في الأرض، وكلما حاولت اجتثاثه يرتدّ في وجهها حجارة من سجّيل. لقد عادت القضية الفلسطينية حية تنبض في الذاكرة وعلى الأرض، ونسفت إسرائيل بأيديها جهد المطبّعين، وخذلت هي المتخاذلين.

# الدراما المصرية والسياسة... فشل في قلب الحقائق

**محمد سي بشير**

لم يشهد السباق الرمضاني في باب الدراما المصرية موسماً أمنياً، بامتياز، مثلما شوهد هذا العام، حين رمت السيناريوهات بحقائق التعامل السّياسي مع التّاريخ القريب، تزييفا وتوجيها، إلى الجمهور، محاولة منها لتغيير الوقائع وترسيخ قراءة السلطة لكرونولوجيا الأحداث، على الرغم من معاكسة الواقع له وكلّ الشواهد. اجتمع هذا في مسلسلين، بصفة خاصة، هما «هجمة مرتدّة» و«الاختيار 2». لخّصت الأجهزة الأمنية المصرية التي سيطرت، في الأعوام الأخيرة، على شركات الإنتاج التلفزيوني، من خلالهما، رؤية السُّلطة، في البلاد العربية، للحياة السياسية التي رسمت تفاصيلها، بالكامل، في فترات حرجة. لكن، ترسيخاً لها في الذاكرة، إذا حدث ما يربك تلك الرؤية، ترسم مخيّلة جديدة تقنعك، إن كنت شاهداً على الأحداث، بل كنت أنت الفاعل الأساس فيها، بأنّ ما تتحدّث عنه هو ما حدث فعلاً، وأنّ ما قامت به يصب في مصلحة المواطن، تماماً مثلما يحدث في باب السياسات العامّة الفاشلة، على الصعد كافة، وإن جاءت لتفقره، وتجعل منه مسكيناً، بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، في بلاد العرب. يحتاج الأمر، لفهم ما يحدث، الرجوع إلى الوراء، شيئاً ما، حين كانت الدراما العربية تتمتّع بفسحة من نقد الواقع لنشاهد، وقتها: «ضيعة ضايعة»، «الهروب»، وفي السينما «عسل أسود»، أو نتمتّع بمسرحية قمّة في النقد اللاذع للوضع العربي على غرار «كاسك يا وطن» للثنائي محمد الماغوط ودريد لحّام، تأليفاً وتمثيلاً. لكن، الآن، مع ما أنتجته الردّة عن الربيع العربي، بموجتيه، من تراجع حقيقي للحرّيات وللنقد، وصل بنا الأمر إلى مقصّ الرقيب، بداية، ثم، الآن، وبكلّ تبجح، توجيه للسيناريو والإشراف على إنتاجه، مع تجنيد الممثلين لأداء أدوار ملؤها الكذب والدجل على المشاهد.

على الرغم من ذلك، ثمّة ملاحظة مهمّة، أنّ الصورة النمطية للثقافة السياسية التي عملت تلك الأعمال الفنّية على صنعها، ثم غرسها في لاشعور المشاهد العربي، في فترة تلك الفسحة من إمكانية النقد، هو توفّر فرصة أن تنتقد، ترفع صوتك بالإشارة إلى مظالم، فساد أو بعض المشكلات الاجتماعية ذات الصلة بمقاربات الحكم، لكن ليس من الدائرة الحاكمة أو المتصلة بها، مباشرة، لأنّ ذلك مُتاح ومسموح لهوامش النظام الحاكم أو النخبة التي تعمل لصالحه ومتعلّقة به استفادة وفساداً.

تبعاً لذلك، تطوّرت الأمور إلى أن وصلنا إلى معركة الإعلام البديل التي خسرتها السُّلطة، لتقرّر، بعدها، التحكّم في التكنولوجيا الرقمية، بحجب مواقع إلكترونية، بإعمال المقص في المطبعة، بالمنح الأمني المُشدّد، جداً، لترخيص النشر أو إنشاء المواقع الإخبارية الإلكترونية، بل بالعمل، أيضاً، على توزيع «سكريبت» على مقدّمي الحصص الإخبارية، والنشرات والبرامج الحوارية، ليكون حديثهم، كلّه، موجّهاً، متحكّماً فيه، ومتمحورا حول ما تريده السُّلطة من التركيز على قضايا محدّدة بعينها، وبتناول لا يخرج عما تريده من خطّ تحريري استبدادي وشمولي.

شكّلت خسارة الأنظمة معركة الإعلام البديل هاجساً لم تتمكّن من تجاوز تداعياته إلاّ بمقاربتين: الرقابة الرقمية، ببرمجيات التجسّس والحجب، إضافة إلى التحكّم في منصّات بثّ المحتويات، من خلال الاستحواذ على القنوات، وشركات الإنتاج الدرامي، وصولاً إلى تشكيل الأفكار الدرامية (الخطوط العريضة والسيناريوهات) من غرف الاستخبارات، وتحويلها إلى مسلسلات رمضانية تصحّح، من خلالها، كما تقول، مسار التاريخ، وتغرس ثقافة سياسية جديدة، مضمونها الأول والأخير، بل والدائم، وفق رأيهم، أنّ الدولة لا توجد إلاّ بهم ولهم، ومن دونهم خراب الدنيا، والبلاد، والعباد.

لكن، بقدر ما كانت الردود على مضمون رسائل المسلسلين «الاختيار 2» و«هجمة مرتدة»، بالذات، متجهة نحو انتقاد الكتابة المستقطبة للتاريخ ولحركية الأحداث التي ما زالت، في حركيتها ساخنة، فإنّ ما يجب التوقف عنده حقائق ثلاث: تشير الأولى إلى سذاجة من يعتقد أنّ التاريخ يمكن أن يغيّره مسلسل، وإن توفّرت له كلّ الإمكانات من سيناريو، وتمويل كبير، وممثلين من الصف الأول، لأنّ الحقائق المثبتة تبقى شاهدةً على أنّ ما حدث قبل الربيع العربي، وفي أثنائه وبعده، لم يكن محض مؤامرة استخباراتية أجنبية على مصر وبلاد العرب، وإن وُجدت، لأنّها من صميم المنافسة في العلاقات الدولية، كما أنّ ميداني رابعة العدوية والنهضة، في القاهرة، شهدا صيف عام 2013، في أثناء فض الاعتصامين فيهما، قتلاً مع سبق الإصرار والترصّد إزاء عُزّل وأصحاب قضية ومعارضي رأي.

هذا على المستوى الشكلي. أمّا على المستوى الدرامي، فانّ وسائل التواصل الاجتماعي، وهي نقطة قوة الإعلام البديل في عرض الموقف الآخر المسكوت عنه، لم تتوقّف عن التنديد، حلقة بعد حلقة، بمضموني المسلسلين في سردهما كرونولوجيا الربيع العربي والأحداث المرتبطة بانقلاب 3 يوليو 2013، بل إنّ كلّ الحقائق والشواهد، من تقارير دولية وبرقيات مسرّبة («ويكيليكس») أنموذجاً)، إضافة إلى مذكّرات بعض صنّاع تلك الأحداث (هيلاري كلينتون أو أوباما، مثلاً)، تناقض، جميعها، تلك السردية وتدحضها من الأساس. وحتى مع حصرية العرض للرأي الواحد، وشحذ البلاتوهات الحوارية لعرض ما يساعد تلك المشاهد الدرامية على الرسوخ في العقل الباطن للمشاهد المصري والعربي، على العموم، فإنّ الدراما لن تتمكّن من قلب الحقائق، أو أن تعارض ما شوهد من جرائم بشعة على شاشات القنوات، مباشرة، خصوصاً بالنسبة لجريمة فضّ الاعتصامين في ميداني رابعة العدوية والنهضة.

من ناحية ثالثة، هل يمكن للدراما أن تعارض حقيقة أنّ الفشل الاقتصادي وفشل التسيير السياسي لقضايا البلدان العربية هما أضعف مناعة العالم العربي، ليصبح مستهدفاً من استخبارات العالم، برمته؟ بل إنّ ذلك الفشل، بإقرار المؤسّسات الدولية، على الصعد كافة، مضافاً إليه التصحير الشامل للحياة السياسية هو ما فتح الباب واسعاً أمام ذلك الضعف الهيكلي للعالم العربي، وجعل منه لقمة سائغة للاستخبارات التي تعمل على الدفاع عن مصالح بلدانها ومصالح الرأسمالية العالمية، والتي برزت، بشكل واضح، مثلاً، في ملف غاز شرق المتوسط، وكيف أنّ الكيان الصهيوني، وتركيا، واليونان، وقبرص، فازوا على طول الخط أمام تقاعس بلدان عربية عدة، لها حصة الأسد، في الدفاع عن مناطقها الاقتصادية الخالصة، والحدود البحرية، والمخزون الغازي - النفطي الضخم في شرق المتوسّط.

> هل يمكن للدراما أن تعارض حقيقة أنّ الفشل الاقتصادي وفشل التسيير السياسي لقضايا البلدان العربية هما أضعف مناعة العالم العربي؟

> رمت السيناريوهات بحقائق التعامل السياسي مع التاريخ القريب، تزييفاً وتوجيهاً، إلى الجمهور

طبعا، لسنا سُذّجاً حتى نبني واقعنا الحالي، على ما فيه من بؤس، على أساس نظرية المؤامرة التي تحاول تلك الأعمال الدرامية تقديمها على شكل حقائق، لأنّنا نعرف، حقّ المعرفة، أنّ المقدّمات تؤدّي إلى النتائج نفسها. ولذلك، فإنّ السياسة العامة الفاشلة، على مدار عقود، لا يمكنها أن تنتج إلاّ ضعفا يكبر مع الوقت، ليصبح هيكليا متمكّنا من جسم الأمة، بل، كما وصفه عبد الرحمن الكواكبي، يحمل صفة طبائع، يجب أن تتوفّر ظروف موضوعية، بالمعنى الذي يتحدّث عنه اليساريون في أدبياتهم، لتغييرها نحو الأحسن، بعد القضاء على مكامن الضعف، قضاء مبرماً ونهائياً.

بديهي، أيضاً، الاعتقاد أنّ الدراما تتمكن من تغيير حقائق أنّ ثمّة ضعفا متمكّنا من جسم الأمّة، وأنّ الطّريق الأيسر لنشر الأمل والعافية في ذلك الجسم هو التشخيص الصحيح للمرض، والتفكير التوافقي في المسببات، ثم وصف العلاج الشافي ومراحل تعافي الجسم العربي، شيئاً فشيئاً، منه.

لم تكن مصادفة أن تنتهي تلك الدراما، في حلقاتها الأخيرة، على وقع إرادة فولاذية من شباب عزّل من أرض الشرف العربي، القدس وفلسطين، لتدمّر، بالكلية، ذلك البناء الدرامي، وكأنّ الواقع، الحقائق والتاريخ الحقيقي أدوات ثانوية في دحض السيناريوهات والعروض التلفزيونية من حوارات وضيوف/ ممثلين كانوا شهود زور، بل أضافت إلى ذلك كلّه رؤى للحلّ لقضية فلسطين وللضعف العربي اللذين لا يمكن الوصول إليهما إلاّ بعد تعافي جسم الأمة بالعلم، بالحكم الراشد، بسياسة عامة ناجعة، وبالتوافق بين أبناء الأمة، كلهم، على أن المستقبل يصنعه الواقع وليس مخيلة ممثّلين ولا دراما تُصرف عليها أموال الأمّة، وتريد تزييف مسار الماضي، وتأمل في القضاء على المستقبل.

(كاتب وباحث جامعي جزائري)

# الصحراء المغربية في انتظار بايدن

**عبد الدين حمروش**

اتخذ المغرب قراراً صعباً بخصوص «الصحراء المغربية»، خلال الأسابيع الأخيرة من ولاية الرئيس دونالد ترامب. ويمكن القول إن القبول بالاعتراف الأميركي، وفي السياق الذي حاولت الدبلوماسية المغربية أن تنأى به عنه، كان من أصعب تلك القرارات على الإطلاق. ولذلك، سعت الدولة المغربية إلى الفصل بين مسارين: مسار الاعتراف بمغربية الصحراء، والتطبيع مع الكيان الإسرائيلي. وفي هذا السياق الدقيق، كان الاتصال بالرئيس الفلسطيني، محمود عباس، الذي شدّد فيه الملك محمد السادس على «أن المغرب يضع دائماً القضية الفلسطينية في مرتبة قضية الصحراء المغربية، وأن عمل المغرب من أجل ترسيخ مغربيتها لن يكون أبداً، لا اليوم ولا في المستقبل، على حساب نضال الشعب الفلسطيني من أجل حقوقه المشروعة».

ويوم كنا نتابع الإعلام المغربي، وفي معظم القنوات التلفزية والإذاعية الرسمية، ظل التركيز على القرار الرئاسي لترامب هو الغالب، غير أنه كلما تمّ التطرق إلى التطبيع، كان الموضوع يُسوَّغ باعتباره مجرد إعادة فتح «مكتب الاتصال»، وحق اليهود المغاربة في إسرائيل بزيارة بلدهم الأصلي، .. إلخ. ولذلك، لم نكن لنعدم وجهات نظر ومواقف، ظلت تُبالغ في التطرّف، انحيازاً للتقارب المغربي - الإسرائيلي، وما يمكن أن يعود به من منافع على المغاربة (استثمارات، تكنولوجيا متطورة، .. إلخ). ومن تلك التسويغات الطريفة، التي كانت ترد على ألسنة بعض المحللين، أن «إعادة الاتصال» يمكن أن «تُحلحل» القضية الفلسطينية، بعد تعذّر ذلك بقوة السلاح.

هل كانت مردودية الاعتراف الأميركي إيجابية على قضية المغرب الأولى، في مقابل انعدام التأثير السلبي للتطبيع المغربي - الإسرائيلي على القضية الفلسطينية؟ فلسطين والصحراء قضيتان عادلتان، بالنسبة لأهليهما من الفلسطينيين والمغاربة، على الرغم من «أخطاء» شابت مسارات تدبيرهما معاً. لنترك الجزء الأول من المعادلة، المطروحة في السؤال، على أساس أن نتفرّغ لتحليل الجزء الثاني منها. من وجهة نظر بعضهم، يبدو أن المغرب «دخل» في مغامرة، حين تمت الموافقة على العرض الذي قُدِّم له، عبر الاعتراف الأميركي بمغربية الصحراء. هل كان على المغرب رفض ذلك العرض، وهو الذي يئس من «مناورات» أصدقائه وخصومه، على حد سواء، في استطالة مشكل الصحراء أكثر من أربعة عقود؟ من الإيجابيات المُعتبرة للاعتراف الأميركي، من غالبية المحللين السياسيين المغاربة الذين فُتح في وجههم المجال الإعلام الوطني، أن قضية الصحراء انعطفت منعطفاً جديداً. وبالإضافة إلى ذلك، وإلى قراراتٍ أخرى مُواكِبة لـ«اعتراف»، كان هناك وعد بدفع أصدقاء الولايات المتحدة الأميركية إلى الإقدام على تبنّي الإعلان الرئاسي.

هل كان التنسيق مع إدارة ترامب، وهي تجمع حقائبها من البيت الأبيض، مغامرة فعلاً؟ ثم هل كانت طبيعة الاعتراف الأميركي، مُجسَّدة في القرار الرئاسي، ذات نفوذ قانوني على الإدارة الجديدة؟ إن لم يكن هناك توقّع بإعادة انتخاب ترامب، فقد صار هناك عزم مغربي على استثمار «الفرصة»، بحشد حلفائه على السير في المنوال الأميركي نفسه. وفي السياق ذاته، لم يكن من المقبول الاستهانة بالدور الإسرائيلي، وقوى ضغطه المهيمنة على مختلف الإدارات الأميركية المتعاقبة (لم يعد محللون سياسيون مغاربة يتحرّجون من التعبير عنه). أما الأصدقاء الأوروبيون، وفي طليعتهم دولهم الكبرى، فقد كان التقدير أنهم إذا لم يتبنوا الخطوة الأميركية، فإنهم لن يقفوا في وجهها على كل حال.

اليوم، يمكن تفهُّم الغضب المغربي القوي من إسبانيا وألمانيا، بسبب عدم الانحياز إلى القرار الأميركي. ذلك أن إسبانيا التي تُعتبر نفسَها معنيّة بملف الصحراء، تدخّلت لدى الإدارة الأميركية، من أجل ثنيها عن قرار الاعتراف ذاك. ومما زاد في حدّة الغضب المغربي، أيضاً، استقبال أحد مُستشفياتها زعيم جبهة بوليساريو، إبراهيم غالي، سرّاً، وبجواز سفر واسم جزائريين «غير حقيقيين».

وكذلك، كان الحال مع الموقف الألماني الذي اعتبرته الخارجية المغربية «سلبياً بشأن قضية الصحراء المغربية، إذ جاء هذا الموقف العدائي في أعقاب الإعلان الرئاسي الأميركي (...)، وهو ما يُعتبر موقفاً خطيراً لم يتمّ تفسيره لحدّ الآن». وإذ أقدم المغرب على تعليق كل اتصال أو تعاون مع السفارة الألمانية في الرباط، إضافة إلى استدعاء السفيرة المغربية من برلين يوم 6 مايو/ أيار الحالي، ما زالت تبعات رد الفعل المغربي، المتصلة بالاستقبال الإسباني لإبراهيم غالي، تتفاعل.

بتلك الخطوات الحادّة والمباشرة، يكون المغرب قد أخلص لنهج، أخذ يتبنّاه ضد كل من بات يناوئ وحدته الترابية. وعلى الرغم من قوة تلك الدول، مثل إسبانيا وألمانيا وحتى فرنسا، إلّا أن الأوراق الخاصة، بخصوص الهجرة غير الشرعية والأمن وغيرهما، باتت تُمكّن المغرب من رفع صوته عالياً. وإذ بدأت المناورات الأوروبية في الانكشاف، ما زال المغرب ينتظر الموقف الصريح لإدارة الرئيس الأميركي، جو بايدن، في موضوع الإعلان الرئاسي لدونالد ترامب. وعلى الرغم من عدم التعبير عن موقف جديد، إلا أن اجتماع مجلس الأمن الدولي، الحاصل يوم 21 الشهر الماضي (إبريل/ نيسان) أثار تساؤلاتٍ كثيرة بشأن «البرودة» التي تعاطى بها مُمثل الإدارة الأميركية مع ملف الصحراء المغربية، ففي حين كانت الرباط تنتظر تحديد المسؤولية عن خرق وقف إطلاق النار، وعرقلة عمل بعثة الأمم المتحدة (المينورسو)، وتعيين مبعوث جديد، لم تعلق الولايات المتحدة الأميركية على تفاصيل الجلسة، خلافاً لما جرت عليه العادة. وأكثر من ذلك، ما أزعج المغرب هو عدم تطرّق واشنطن إلى اعترافها بسيادة المغرب على صحرائه.

تنتظر إدارة بايدن ملفات شائكة عديدة، في طليعتها النووي الإيراني، القوة المتصاعدة للصين، التدخلات الروسية في أوكرانيا، ... إلخ. وما لم يكن في حساب هذه الإدارة تفجُّر الأوضاع في فلسطين المحتلة، في ظل هيمنة اليمين الإسرائيلي الاستيطاني، بزعامة المتطرّف الكبير، بنيامين نتنياهو.

ولذلك، يبدو أن ليس من المستعجل، بالنسبة لإدارة بايدن، وضع «القدم» في رمال الصحراء الآن. وإن يظهر أنها لن تُساير التوجُّهات المناوئة، لجيمس بيكر وكريستوفر روس وجيمس إنهوف وجون بولتون، إلا أن على المغرب الاشتغال أكثر مع شركائه المتعدّدين، وبخاصة في ظل عودة التنسيق الأميركي مع أوروبا.

> لن تتخذ إدارة بايدن موقفاً ارتدادياً عن إعلان ترامب. ولن تتحمّس له، إذا أخذنا بالاعتبار اعتزامها إشراك أطرافٍ أخرى

> لا تبعات دراماتيكية من استعادة المغرب دوره «الفلسطيني» الفاعل، سيما في ظل «التّحجُّجات» التي رافقت حدث التطبيع

من جهة أخرى، على الحذر المغربي أن يكون قوياً، اتقاء للوقوع في «فخ» دولة الاحتلال الصهيوني، في صراعها الذي تريد جرّ المغرب إليه ضد إيران، كما ظهر ذلك في تنبيه المدير العام السابق لوزارة الخارجية الإسرائيلية، دوري غولد (حول علاقة إيران بمليشيا البوليساريو). ففي وقتٍ تصر إدارة بايدن على العودة إلى الاتفاق النووي السابق مع إيران، كما تجرى تفاصيله في فيينا حالياً، وفي وقت يشهد بداية الحوار السعودي - الإيراني، من غير الحكمة السياسية الانخراط في التحالف الإسرائيلي ضد إيران. الاندفاع باتجاه إسرائيل مُكلِّف من نواحٍ عدة، وخصوصاً في ظل إصرار الأخيرة على وأد حلم الدولة الفلسطينية.

ولنا في ما قامت به في القدس والأقصى، وخلال شهر رمضان الأبرك، وبعد الهدايا التطبيعية التي تحصّلت عليها، مثالٌ صارخٌ عن العنجهية الصهيونية المتطرّفة. لقد اضطلع المغرب بدور مهم في لجنة القدس، عبر الاشتغال «على الأرض»، في مساعدة الفلسطينيين على البقاء في مدينتهم. وبعيداً عن الخطاب الإعلامي، تكاد تكون مُساهمة المغرب، في بيت مال القدس، الوحيدة.

ومع ذلك، يؤشّر التواصل الحاصل، من إدارة بايدن وتركيا وروسيا، مع مصر وقطر والجزائر وتونس، على تراجع ما في فاعلية التدخل المغربي، على الصعيد الفلسطيني. هل قلّص التطبيع الدور المغربي، مع العلم أن رئاسة لجنة القدس تعود للملك محمد السادس؟

يبدو لزاماً تحرّر القرار المغربي من المراهنة على «الآخرين»، في الدفاع عن وحدته الترابية، فللصحراء أهل يحمونها، وبخاصة في ظل الإجماع الذي تحظى به من المغاربة جميعاً. ومن هنا، لا تبعات دراماتيكية من استعادة المغرب دوره «الفلسطيني» الفاعل، سيما في ظل «التّحجُّجات» التي رافقت حدث التطبيع. كما أن من شأن فتح الفضاء العام للتظاهرات الشعبية، المُندِّدة بالممارسات الصهيونية الاستيطانية، أن يَدْعم الموقف الفلسطيني. ذلك أنه لا يُعقل أن تختفي التظاهرات المليونية، المؤيدة للحق الفلسطيني، دفعةً واحدة، وخلال هذه الهجمة الصهيونية غير المسبوقة.

حسب بعض التوقعات، لن تتخذ إدارة بايدن موقفاً ارتدادياً عن الإعلان الرئاسي الترامبي. كما أنها لن تتحمّس له، إذا أخذنا بالاعتبار اعتزامها إشراك أطرافٍ أخرى، ومنها أوروبية، لم تكن تنظر بعين الرضى إلى ما أقدم عليه ترامب. في انتظار بايدن، الذي قد يكون شبيهاً بـ«غودو» في مسرحية صمويل بكيت، ينبغي قراءة الوضع الجيو سياسي، الإقليمي والدولي جيداً، خصوصاً بوجود طرف جزائري عنيد، اتخذ «الصحراء المغربية» قضيته الأولى.

(كاتب مغربي)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري**
■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

**المكاتب**
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads